

التجديد الحضاري في إطار المقاربة التكاملية بين العلوم والمعارف في تصور محمد إقبال

Civilizational Renewal within the Framework of Interdisciplinary Integration: An Exploration of Muhammad Iqbal's Vision

بشير خليفي¹

bachir.khelifi@univ-mascara.dz

تاريخ النشر: 2025/12/15
Received: 28/09/2025

تاريخ الاستلام: 2025/09/28
published: 15/12/2025

ملخص:

عَادَةً ما يَرْتَبِط التجديد بالنهضة والرغبة في الإصلاح، إنه سُنّة كونية تُحِيل إلى سعي إرادي وحثيث لتطوير وتعديل مسار اختل بحكم أسباب وظروف. كما أنه في سياق الحضارة دعوة إلى التغيير والابتكار تماشياً مع المستلزمات التي تضمن للحضارة التطور والاستمرارية، أو بالمقابل يتجه نحو إحياء حضارة شكلت ماضياً تليداً. بناءً على ما سبق؛ يتشكل هدفنا الرئيس في استقصاء وتفكيك موضوعة التجديد في رؤية المفكر والمصلح محمد إقبال (1877-1938) ضمن سياق رؤيته الحضارية في إطار تصور تكاملي للعلوم والمعارف يجمع وفق مقاربة تركيبيّة وتفاعلية؛ وذلك من خلال السعي الحثيث للإجابة على إشكالية مركزية تتمحور في مدى إمكانية تكامل العلوم في توفير الشروط المناسبة للتجديد الحضاري في صيغته الإحيائية والتطويرية، وذلك من خلال نموذج محمد إقبال الذي يربط التجديد الحضاري في مقام أول بجمع ومواءمة حصيفة بين علوم الطبيعة وعلوم الدين؛ من خلال إدراك حكيم لهذه العلاقة في إطار طبيعة المعرفة؛ والمتعلقة بالإدراك الحسي الذي يُكمله الإدراك العقلي.

كلمات مفتاحية: التجديد، حضارة، العلوم، الدين.

Abstract:

“Rebirth” or “revitalization” is often associated with a desire for reform and renewal. It is a universal law that refers to a voluntary effort for reform and development; either to ensure civilization's continuity or to revive a former glory. Based on the above, our main objective is to investigate the theme of renewal in the vision of the thinker and reformer Muhammad Iqbal (1877-1938); within the framework of an integrated conception of sciences and knowledge that is combined according to a synthetic approach. This is done through the persistent effort to answer a central problem of how to integrate sciences to promote civilizational renewal.

Keywords: Renewal, Civilization, science, religion.

(1) مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية جامعة مصطفى اسطمبولي. معسكر. (الجزائر).

1. مقدمة:

يرتبط مفهوم التجديد الحضاري بمسار بنيوي يهدف إلى تقوية الحاضر وتفعيله من خلال الاستفادة من ثراء الماضي، وهو المعنى الذي يتحدد من خلال مظهرين، الأول: إعادة بعث وإحياء حضارة، فيصير بهذا الفهم انبعاثا حضاريا أو بعبارة أخرى "إحياء بعد موت"، في حين يتجلى المظهر الثاني في تنشيط وتفعيل حضارة قائمة عن طريق الاستفادة الدائمة من إنجازاتها، تصويب أخطائها، ومن ثمة مدها بالأسانيد والفواعل التي تساهم في الرفع المستمر لمنحى التطور من خلال التطوير الدائم لقوتها وقدرتها في التكيف الفعال مع الظروف والتحديات المتغيرة.

هذا، ويُعتبر العلامة محمد إقبال (1877-1938) واحداً من العلماء المؤثرين الذين امتلكوا القدرة والكفاءة في الجمع بين خاصيتين أثيريتين؛ تتعلق الأولى بحياسة معرفة رصينة في إطار مقارنة تكاملية، في حين ترتبط الثانية بالقدرة على التأثير في الواقع الاجتماعي، الأمر الذي مكّنه من إحداث تأثير كبير في التاريخ الاجتماعي في ضوء تحليلاته المتعددة: الدينية، الثقافية، السياسية والاقتصادية.

لقد ساهم محمد إقبال بعلمه ومواقفه وقدرته على التأثير في إحداث تأثيرات جمّة ارتبطت في مقام أول في التأسيس لانعطاف في الفهم استجلب معه رؤية قيمية جديدة ظهرت معالمها في نتائجها المتعددة التي وصلت إلى حدود التأسيس لثقافة جديدة في التعامل مع الفكر والأدب؛ الأمر الذي يُعزز الإبداع والابتكار في إطار إحداث المحايثة والتناغم بين ترسيخ وتحذير القيم الوطنية والدينية والانفتاح على الثقافة الإنسانية المفضية إلى الاغناء والإثراء؛ الأمر الذي يُساهم في إحداث الانسجام الداخلي؛ وفي الإطار نفسه يُعزز توطيد قيم الحوار والتفاهم بين الحضارات المختلفة.

إن الهدف الرئيس من هذا البحث يتمحور في مقام أول في الإجابة عن الإشكالية المركزية التالية: كيف يُمكن لتكامل العلوم والمعارف في إطار التّعُدُّ والثراء المعرفي والمنهجي بحسب مقارنة محمد إقبال أن يُفضي إلى تحقيق الفاعلية الثقافية المفضية إلى توفير الشروط المناسبة للتجديد الحضاري في صيغته الإحيائية والتطويرية؟

إن معالجة هذا الموضوع واستقصاء جزئياته رهين بتقفي تحقُّق فرضية داعمة على المستوى المبدئي مفادها أن المقاربة البيئية في إطار التكامل الفعال للعلوم والمعارف كما تصورها محمد إقبال تُساهم بشكل جلي في تجسيد الفاعلية الثقافية، ومن ثمة تهيئة الظروف الملائمة لتحقيق التجديد الحضاري في حلته الإحيائية أو التنموية، وذلك أخذا بعين الاعتبار أن فلسفة محمد إقبال القائمة على مفصلية تعدد المعارف وتنوعها، وكذا طبيعة شخصيته ومواقفه الحياتية؛ تُقدم سنداً ركيناً لإحداث التجديد الحضاري، وذلك في إطار المساهمة في توفير الأسانيد والأساليب المفضية للإقلاع الحضاري، وذلك من خلال إبداع وتوفير أشكال ثقافية وتعبيرية تتسم بالقدرة على مقارعة التحديات الحياتية بمختلف مظهراتها وتحليلاتها.

2. التجديد الحضاري والتكامل المعرفي

2.1 تكامل العلوم والمعارف ومقصدية التجديد الحضاري في تصور محمد إقبال

ينطلق مفهوم التكامل المعرفي أو التكامل بين العلوم عند مفكري الإسلام وفق رؤيتين؛ تُحيل الأولى إلى تعدد العلوم وتنوعها والتالي حاجتها للتكامل والتساند والتآزر من أجل تقديم رؤية شاملة وعميقة، ومثال ذلك رؤية أبو حامد الغزالي في كتابه "ميزان

العمل" وتحديدًا في باب: "بيان وظائف المتعلم والمعلم في العلوم المسعّدة"، المؤسسة على تعدد العلوم وتكاملها وعلى ضرورة طلبها وتحصيلها، إذ ينبغي للإنسان المتعلم (الغزالي، 1964، ص 348): "ألا يدع فنا من فنون العلم ونوعا من أنواعه، إلا وينظر فيه نظرًا يطلع به على غايته ومقصده وطريقه، ثم إن ساعده العمر ووائته الأسباب طلب التبحر فيه، فإن العلوم كلها متعاونة مترابطة بعضها ببعض" (...). "كما لا ينبغي للمتعليم أن يستهين بشيء من العلوم بل ينبغي أن يحصل كل علم ويُعطيه حقه ومربته، فإن العلوم على درجاتها؛ إما سالكة بالعباد إلى الله تعالى أو مُعينة على أسباب السلوك، ولها منازل مُرتبة في القرب والبعد عن المقصد."

هذا إضافة إلى تصور ابن حزم الأندلسي في رسالته المتفردة "مراتب العلوم" حيث يُقر بأن (ابن حزم، 1983، ص 90): "العلوم كلها مُتعلق بعضها ببعض، مُحتاج بعضها إلى بعض." ويواصل ابن حزم تعميقه لموقفه بقوله بأن (ابن حزم، 1983، ص 77): "من لم يسمع إلا من عالم واحد أو شك ألا يحصل على طائل، وكان كمن يشرب من بئر واحدة واختار الملح المكدر وترك العذب،" (...). "ومن اقتصر على علم واحد لم يُطالع غيره (...). كان ما خفي عليه من علمه الذي اقتصر عليه أكثر مما أدرك منه، لتعلق العلوم بعضها ببعض."

بالمقابل؛ يرتبط التصور الثاني بالرؤية التوحيدية؛ التي تُحيل إلى الغائية والمقصدية الوجودية في إطار عقدي من خلال محورية "الإمداد والاستمداد" لتحقيق الفائدة للإنسان وإعمار الكون؛ (شاهد، 2013، ص 21) وتستند هذه الرؤية الدينية في تعميق فهم التكامل بين المعارف والعلوم على وحدانية الخالق عز وجل، أي جعل التوحيد أساسًا تداخل وتكامل العلوم والمعارف، من مُنطلق الإقرار بالخالق واحد صانع للكون، واعتباره أصلًا ومرجعًا للمعرفة البشرية، وكذا النظر إلى تكامل العلوم من وحدة العلم ومن خيرية مقاصده في إحالة إلى إسعاد الإنسان وإعمار الكون، ولن يتم ذلك في رأي محمد نقيب العطاس إلا من خلال عملية مُستمرة للدمج والعزل بما يتواءم مع العناصر والمفاهيم الإسلامية الأساسية؛ على غرار مفهوم الفطرة، الأمر الذي يُضفي على المعرفة جودة نابعة من وظيفتها وهدفها الطبيعي، فتصير من جراء ذلك معرفة حقيقية. (Al Attass, 1993, P163).

بناءً على ما سبق، تتجلى رؤية التكامل المعرفي عند محمد وإقبال في ضوء تحقيق الفهمين؛ فهي رؤية توحيدية تتأسس على ضرورة التدبر في ملكوت الله، الأمر الذي يُؤسس لفهم عام يُحدث انعطافًا للتوجه اليوناني القائم على محورية الذات. فالرؤية التركيبية في تصور محمد وإقبال تتمحور في عقلانية التوجه الذي يتمظهر من خلال إرادة خلاقة يتجلى من خلالها هذا التنظيم المحكم السائد في الكون والمتمثلة في ذات الخالق عز وجل. (Iqbal, 2012, P 50) هذا زيادة على تمثله للفهم الثاني والمتعلق بتساند العلوم وتأزرها؛ في إطار ما يُعرف بـ: "المقاربة البيئية" موضوعًا ومنهجًا، الأمر الذي يُساهم في توطيد البنية التشاركية في إطار البعد التركيبي.

إن السمة التركيبية في التجربة الإنسانية تتجلى بحسب محمد وإقبال في مستويات ثلاثة؛ تُحيل إلى مُستوى المادة في إشارة إلى العلوم الصلبة المتعلقة بالعلم التجريبي الذي يُمكن تحديد ملامحه بدقة مُحكم اعتماده على التجربة، زيادة على مُستوى الحياة في إطار التجربة الإنسانية التي تُنوس بين الصواب والخطأ، وفي إطار ثالث مُستوى الوعي الذي تُشير إليه المعرفة سواءً في إطارها العقلي، أو في سياق علوم الإنسان والمجتمع (إقبال، 2011، ص 60).

وفي السياق نفسه؛ إن هذه السمة التركيبية للمعرفة الإنسانية تتأسس في مضامينها على تكامل المعارف والمناهج، كما تعتمد في عمقها على السمة التجزئية والفردية، في إطار الافكار المستخدمة في تنظيم المعرفة أو من خلال المعرفة في حد ذاتها، فالعلم في نظر

إقبال (إقبال، 2011، ص 75). "ليس نظرة واحدة متسقة عن الحقيقة، وإنما مجموعة من النظرات الجزئية عن الحقيقة، شذرات من تجربة كلية لا تبدو منسجمة مع بعض."

بناءً على ذلك؛ يُقدم إقبال تصوره للمعرفة العلمية ضمن السياق الطبيعي؛ بوصفها تجزئية يُحكم اعتمادها على الملاحظة والاستقصاء والتحليل، بمقابل المعرفة الدينية التي تُنشد الحقيقة بوصفها كُلاً مُتكاملاً، فيتخذ الدين بناءً على هذا التصور الذي يُؤسس له محمد إقبال؛ موقفاً مركزياً في أي تركيب تقوم به الذات لجميع مُعطيات التجربة الإنسانية. (إقبال، 2011، ص 76). هذا، ويستند إقبال إلى أهمية المعطى الذاتي في المعرفة، وهنا في هذا المقام يُمكن مُقارنته مع طرح المنهج الظاهري الذي يتأسس على إدراك المعرفة الحققة من خلال تبديدها للذات في المعطى الإدراكي الجلي، فمن جهة لا شيء ثابت كما يقول محمد إقبال فكل شيء في حركة دائمة ومستمرة، وفي السياق نفسه إن إدراك الفرد الباحث في ستمته الذاتية العميقة التي تُعد اتصالاً مباشراً للحقيقة يُعد إدراكاً جوانياً عميقاً (إقبال، 2011، ص 83).

الشيء نفسه، عبر عنه في شعره بلغة توازن بين مُتطلبات المنطق ومُقتضيات البلاغة، وذلك في ضوء إدراك التطهُّر بوصفه سَمّاً ضرورياً لضبط النفس وانعتاقها في الوقت نفسه، وذلك من أجل تحقيق الوثبة الحضارية، الذي يبدأ بمقاومة غرور الدنيا ومباهجها، وهذا ما تعنيه الشهادة التي تبدأ بنفي المشاركة لصالح إثبات الصمدية، وفي الصلاة مقاومة للكسل، وفي الزكاة إثارة للخير ومقاومة لحب المال، وفي الصيام ضبط لحاجات النفس، في حين يُعبر الحج عن تجمع للناس، ومُقاومة العزلة والانطواء. (حنفي، 2009، ص 102).

بناءً على ما سبق؛ يتضح أن التكامل المعرفي في تصور محمد إقبال يُعتبر شرطاً رئيساً لقيام الحضارة؛ سواءً في ضوء ميلادها وانبثاقها أو أحيائها وإعادة بعثها، أو في إطار تطوير معالمها وترقية أساليبها، وذلك بِحكم أن المعرفة العلمية المسنودة بعامل بشري رصين تُؤهل الفرد والمجتمع لتحقيق البناء الحضاري. ومادام محمد إقبال ينتمي إلى أمة إسلامية شهدت نهضة حضارية بارزة على الأقل في فضاءين مُختلفين؛ أتحدث عن اللحظة الأسيوية والعباسية واللحظة الأندلسية التي يجمعهما عنوان "العصر الذهبي للعلوم في الإسلام"، فإن البحث في تحقيق التجديد والانبعاث الحضاري في نظره قائم على إدراك المسؤولية التاريخية التي تبدأ في مقام أول بتجديد التفكير، وخصوصاً التفكير في المجال الديني؛ دون أن يعني ذلك الإقرار بالعدمية، بقدر اعتبار الأمر إعادة تدبر وتفكير بغرض فهم كُنْه الإسلام ومقاصده في إطار البحث في أساليب وأساليب التفكير على مُستوى الموضوع والمنهج في إطار التفكير الإنساني ككل، وهو ما عمد إليه محمد إقبال بوصفه عالماً وعارفاً بالتراثين الإسلامي والإنساني في سياق الاستعانة بمصادر المعرفة التي تجمع العقل والحس والقلب، في إطار من "اليقظة المستمرة" التي تحتم على الفرد المسلم خصوصاً أن يكون على الدوام "كَيْسًا فُطْنًا" هذا ما يُبرزه محمد إقبال مُستعيناً بإحدى العبارات الشاعرية الجميلة، والتي مفادها (إقبال، 2011، ص 92): "إذا كان قلبك لم يحدده السراب، فلا تكن مُعجباً بجدّة ذكائك، لأن تحركك من هذا الخداع البشري مرده إلى ضعف ظمئك."

2. 2 في معنى التجديد الحضاري عند محمد إقبال:

يعتبر كتاب "تجديد الفكر الديني في الإسلام"، إنجازا معرفيا بالغ الأهمية في إطار التأسيس لحوار منهجي ومعرفي يقوم على مفصلية الإمداد والاستمداد بين المعرفة الدينية والمعارف العلمية المتنوعة، من أجل تقويم المعرفة في شكلها العام، وكذا الإبانة عن المعارف النافعة المفضية للتقدم، والتي تتباعد عن إحداث المواءمة بين علوم المادة وعلوم الروح.

للإشارة فإن كتاب "تجديد الفكر الديني في الإسلام" يحتوي على سبع محاضرات ألقاها المفكر محمد إقبال بين عامي (1347-1349 هـ / 1928-1930 م)، وهي مُداخلات عَالِمَةٌ، بمعنى أنها مُوجهة للنخبة أو بالأحرى تحتاج لمستوى معرفي مُتطور بغرض فهمها وإدراك كُنْهها، لأن الكاتب يستند إلى مرجعيات فكرية ذات عمق معرفي سواء في إطار الفكر الإسلامي أو في الثقافة الغربية، وعمل الرغم من تعدد وتنوع مضامين المحاضرات؛ إلا أنه يُمكن الحديث عن خيط ناظمٍ يتعلق بالرغبة الحثيثة لإحداث الانعتاق والارتقاء، حتى تتمكن الذات المسلمة من إحداث معرفة حقيقة بالخالق عز وجل، ومن جهة ثانية تحقيق الفهم والوعي المفضي لقيام الذات بدورها الحضاري والمتمثل في تحقيق الكينونة الفعّالة المحققة للازدهار والتقدم؛ وذلك انطلاقاً من "إعادة بناء الفلسفة الدينية الإسلامية بناءً جديداً مُحافظاً على روحها الأصيلة من ناحية، ومُسترشداً بأحدث التطورات في مختلف ميادين المعرفة الإنسانية من ناحية أخرى." (إقبال، (المقدمة)، 2011، ص 34).

للإشارة، فإن محمد إقبال لا يُقدم وصفةً مُختصرةً وجاهزةً للبناء والتجديد الحضاري، كما أنه لا يُقدم بأسلوب سهل ومُباشِرٍ أساليب وطرائق تجديد الفكر الديني، وهذا ما يتجلى في كتابه "تجديد الفكر الديني في الإسلام" الذي يستند فيه إلى رؤية عميقة تتطلب بالضرورة قارئاً يتسم بالحصافة والدراية بعوالم الفكر، فهو تأليف في "تصور فكري لنظرية للمعرفة الإسلامية" تتطلب في مقام أول تفعيلاً مُستمرًا لخاصية التدبر وتوظيف العقل تبعاً للسياق الاجتماعي والتاريخي، في إطار المنظومة القيمية التي يتسم بها الإسلام في إطار تقاطعاته المتعددة مع المشتركات الإنسانية.

لقد عبّر محمد إقبال في مشروعه الإصلاحية والتجديدي عن رغبة حثيثة لمعالجة خلل بنيوي أصاب منظومة التفكير لدى المسلمين، حيث يُعد نتاج لأسباب ذاتية تتعلق بالبُعد عن تحقيق شروط الحضارة، وفي السياق نفسه تتجلى الأسباب الموضوعية في تأثير عامل الاستعمار، وكذا بسبب التهميش الذي عانى منه المسلمون في الهند حينذاك. بناءً على ذلك؛ أسّس إقبال رؤيته على رغبة حثيثة لإعادة هيكلة وبناء منظومة روحية ومعرفية ترنو لتحقيق هدف تغيير واقع المسلمين عن طريق التفكير العميق والمستمر في أسباب التخلف والمرتبطة في مقام أول بمعالجة الأسباب الكامنة في منطلق أوليٍّ بأساليب التفكير عوض مُعالجة الأعراض؛ وذلك بغرض إنجاز وإبداع منظومة فكرية موصولة بالقيم التوحيدية الإسلامية، وكذا بالمشتركات الإنسانية الكامنة في الفكر الغربي؛ إما في إطار منظومة الوصل في تعميق القيم الجامعة مع الحضارة الغربية، أو في إطار منظومة الفصل بإبراز جُملة الاختلافات والتباينات؛ على غرار التباين الذي تحدث عنه إقبال بين أساس منظومة التفكير عند الإغريق القائمة في عمقها على السمة التأملية والنظرية، بمقابل أساس التفكير في الإسلام القائم على إحداث التفاعل بين مصادر مسنودة بالتوفيق اللّٰهني في إطار الترشييد والسداد الرباني من خلال دعوة أثيرة مفادها "اللهم أريني حقيقة الأشياء كما هي." (إقبال، 2011، ص 16).

هذا زيادة على رؤيته بأنه وعلى الرغم من أن الفلسفة اليونانية وسّعت آفاق المفكرين المسلمين بشكل كبير، إلا أنها، في المجمل، حجبت رؤيتهم للقرآن الكريم وروحه، تلك الروح التي ترى في وظيفة "النحلة" تجسيدا للإلهام والإبداع الإلهي، والتي تدعو القارئ المتبصر إلى التدبر ومن ثمة "ملاحظة التغير الدائم للرياح، وتعاقب الليل والنهار، والتأمل في السحب، السماوات المرصعة بالنجوم والكواكب التي تسبح في الفضاء اللامتناهي". (Iqbal, 2012, P 03)

إن الرؤية الحضارية لمحمد إقبال تنأى عن الحدية لصالح إحداث التفاعل الرصين بين المحلي والوفا، أي بين الخصوصية الثقافية والمنجزات الحضارية في بعدها الإنساني، الأمر الذي يجعل من الحدس والفكر أمران متساندان ومتكاملان، وهي الحالة التي أفضت في السابق إلى تكوين وضعية معرفية جعلت "أعمال المتصوفة وأعمال العقلانيين تشكل جميعا فصلا تنويريا متعاضما في تاريخنا الثقافي"، (إقبال، 2011، ص 16)؛ وذلك في إطار توطيد المقاربة التكاملية المفضية إلى إحداث التفاعل بين مختلف العلوم المشكّلة للوعي الحضاري، وذلك في مسار السعي لإحداث التجديد الحضاري من خلال استجلاب ماضي الأمة التليد والذي يبرز في مقام أول في عهد الرسول الكريم ﷺ، وكذا في العهد الذهبي للعلوم عند المسلمين، بمقابل الانفتاح الرصين على المفارقة في الملة لنهل علومهم وتعلم لغاتهم، وللاستفادة من أفكارهم النيرة بمقتضى الحاجة، لقد أصبح من اللازم علينا على حد قول محمد إقبال "أن نفحص بروح مستقلة تاريخ الفكر الأوروبي لنرى إلى أي مدى يمكن أن تساعدنا في مراجعة فكرنا الديني وإعادة بنائه إذا لم الأمر". (إقبال، 2011، ص 24).

إن التجديد بهذا المنطق الذي يتبناه محمد إقبال لا يعني هدم الأصول ولا تقويض المرتكزات المبرزة للهوية والخصوصية، كما أنه لا يُحيل إلى العدمية، إنه في واقع الحال وفي عمقه إعادة صياغة للمنظومة المعرفية وفق متطلبات الحضارة، بالطريقة التي يصير معها بوصفه سعيا حثيثا وتأملا مستمرا لإنتاج وانجاز منظومة فكرية وعلمية وقيمية موصولة بالجذور الإسلامية والقيم التوحيدية، ولكنها بالمقابل مُنفتحة بروح اجتهدادية رصينة على مختلف المعارف والعلوم المحققة للوعي الحضاري، وذلك من خلال رؤية حكيمة تُعلي من شأن البحث والنقد على حد سواء، وذلك في إطار مسار تفكيكي وبنائي لا يعرف النهاية ولا الانقضاء، وهي الميزة الرئيسة التي تفرد بها محمد إقبال؛ والتي جعلته مُفكرا حرا خارج إطار التصنيف، وذلك ببعده عن الحدية والشطط وكذا بقدرته على إبراز الذات العارفة التي تتبنى مسعى تفكيكي الحقيقة في تحييتها وانسجامها مع الحق.

2. 3 أهمية المقاربة التكاملية في بناء المشروع الحضاري

يتطلب التجديد الحضاري مشروعا فكريا أو بالأحرى مشاريع فكرية يتم اثراؤها بنقاش مستمر ضمن إطار مفهوم ومقصدية الحضارة؛ في إحالة إلى المدنية والتقدم والحضور الإيجابي البارز في قضايا الاقتصاد والقانون والسياسة والأخلاق والمعاملات، الأمر الذي يُعطي للحضارة معنى الحضور بمقابل الغياب؛ في إحالة إلى التواجد في المكان، كما يمدّها بِسمة الشكل المتعالي من التقدم الحاصل في مجتمع ما نتيجة للعمل والنشاط الدؤوب. (مؤنس، 1978، ص 13).

هذا، وتتجلى الروح التكاملية في مقام أول في طبيعة التكوين المعرفي لمحمد إقبال على صعيد المضامين والمناهج ولغات الدراسة، لقد امتلك معرفة عميقة في اللغة، التاريخ، الفلسفة، الدين، الأدب، الشعر، الاقتصاد، علم الإناسة... كما أتقن اللغات الأردية

والفارسية والعربية والإنجليزية والألمانية.. وعلى مستوى فضاءات الدراسة اكتسب المعرفة في مقامه الأول في الجامعة بالهند، ثم حصل على الماجستير في كمبريدج وعلى الدكتوراه في ميونخ، في إحالة إلى فضاءات علمية تتسم بالرصانة والعراقة، والدليل أنه في اشتغالاته المعرفية يُحيل إلى روني ديكارت، إيمانويل كانط، فريدريك هيغل وألفريد نورث وايتهيد... كما يُحيل إلى بدر الدين الزركشي، أبي حامد الغزالي، جلال الدين الرومي، أبي الريحان البيروني، محمد جمال الدين غربي الشيرازي... وغيرهم.

وفي السياق نفسه، أحدث محمد إقبال تكاملا بين الفكر والشعر، إذ وعلى الرغم من أن الشعر يبدو في مظهره مختلف عن الفكر، يُحكم اعتباره اقتناصا وترسيخا للحظة الشعورية القائمة في الوجدان والغائبة في تمثّل المتلقي والتعبير عنها باللغة، ويبدو كذلك أن عالم الشعر مُتخّن بالأحكام المسبقة والزائدة التي تجعله كُلاً؛ من خلال تصور تعميمي سائد في الحس المشترك يُساوي بين مُختلف صُنوفه وأغراضه. بيد أن هذا الحكم المتعجل لا يثبت أمام تصور تنبّاه محمد إقبال مفاده أن الفكر يُمكن أن يتجلى في أسلوب الشعر، وهو الأمر الذي يتبدى من خلال تفحص العلاقة الجامعة بين الأدب والفلسفة، بين البلاغة والمنطق، وفي صيغة أعم بين الفن والحضارة.

إن التجديد الذي قدمه محمد إقبال في إطار المقاربة التكاملية لا يعني البتة إحداث انعطاف تام، بقدر اعتباره تصويبا للخلل بغرض التجويد والترقية، علما أن مفهوم التجديد في السياق الحضاري لا يتباعد عن رؤيتين أساسيتين: رؤية ترى التجديد قطعة مع التراث، وانعطافا نحو إعادة التشكيل والبناء، على غرار ما نجده بشكل بارز في تصورات شبلي شميل (1850-1917)، فرح أنطون (1874-1922)، سلامة موسى (1887-1958)، جلال صادق العظم (1934-2016)... وغيرهم. يُقابل رؤية ثانية ترى التجديد مطلبا حضاريا يتواءم مع الخصوصية الحضارية للأمة الإسلامية انسجاما مع قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في حديث شريف رواه أبو داود في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه: (إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُهَا دِينَهَا).

لذلك، اتجه محمد إقبال إلى العمق عوض التركيز على الأعراض، فتبنى نقد طريقة التفكير في مجال الدين لسببين رئيسيين: يكمن السبب الأول في أهمية الدين لدى المسلم بوصفه المنظومة الفكرية المحددة لفهمه وسلوكه، وثانيا؛ لأن واقع التفكير في الدين اعتراه كثير من العوار والشطط من خلال تغليب المعطى البراني على الجواني، والنظر على العمل والفناء على البقاء.

بناء على ما سبق، يبدو أنه لا حل لمشكلة الفهم الحقيقي للدين، أو بالأحرى التفكير في المسألة الدينية إلا من خلال التوجه عبر تبني مقاربة تكاملية بين العلوم والمعارف، والدليل أنه لا مجال للحديث عن قراءة واعية دون خلفية معرفية تمتح معينها من تشابك علائقي بين أكثر من علم، على غرار القيام بقراءة تفكيكية بناءة تُلقى على عاتقها البحث في آليات القراءة والتفكير، لإسقاط ذلك على النصوص المؤسسة للدين الإسلامي الحنيف، فقراءة القرآن الكريم تقتضي التدبر المبني على معرفة عميقة ببناء السطحية والعميقة، إذ وبحسب محمد إقبال "يفتح القرآن عيوننا على حقيقة كبرى، هي حقيقة التغير التي بدون تقديرها والسيطرة عليها يستحيل بناء حضارة متينة البنيان." (إقبال، 2011، ص 34).

هذا، وينبغي الإشارة إلى أنه وفي سياق البناء والتجديد الحضاري، يُقر محمد إقبال بأن إعادة بناء وتطوير وتحديد أسانيد ومعلم الذات والفكر تقوم أساساً وابتداءً من منطلق تغيير دواخل الفرد، في إحالة إلى صناعة الذات، عملاً بقوله جلّ ذكره وتقدس اسمه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يَغَيِّرُوا مَا فِي أَنفُسِهِمْ﴾. (سورة الرعد: الآية 11).

ويواصل محمد إقبال تعميقه لفكرة التجديد بالقول (إقبال، 2000، ص 21): "وفي هذا المنهج من التغيير التقدمي لا يكون الله في عون المرء إلا على شريطة أن يبدأ هو بتغيير ما في نفسه (...). فإذا لم ينهض الإنسان إلى العمل، ولم يبعث ما في أعماق كيانه من غنى وكفّ عن الشعور بباعث من نفسه إلى حياة أرقى، أصبحت روحه جامدة جمود الحجر، وهوى إلى حضيض المادة الميتة، على أن وجود الإنسان وتقدمه الروحي يتوقفان على إحكام العلاقات بينه وبين الحقيقة التي يواجهها."

4. خاتمة:

يُعتبر محمد إقبال واحداً من القامات العلمية المتفردة، وذلك بحكم الأثر البالغ الذي أثرى من خلاله التراث المعرفي الإسلامي والإنساني بشكل عام، لقد جاءت أفكاره رصينة في جوانبها وبرانيتها، لأنه امتلك القدرة على إحداث المواءمة بين البلاغة والمنطق، وذلك بحكم تكوينه المعرفي سواءً على مستوى فضاءات التكوين، أو تجلياته على الصعيد اللغوي والمعرفي.

لقد كانت شخصيته المعرفية مُعبّرة بحق عن التكامل المعرفي، وذلك بحكم حيازته على عديد المعارف المؤهلة للتفكير والكتابة، وذلك في ضوء قدرة بليغة على إحداث توليفة للمعارف؛ سواءً من خلال العلوم اللينة المعبر عنها بعلوم الإنسان والمجتمع، أو من خلال العلوم الصلبة المدركة في حقل الطبيعيات والرياضيات.

لقد اعتبر محمد إقبال ضمن سياق رؤيته الفكرية لطبيعة التجديد الحضاري؛ أنه في إحدى سياقاته المهمة نتاج رصين لتصور تكاملي للعلوم والمعارف النافعة المفضية لتحقيق البناء الحضاري، في إطار مقارنة تركيبيّة وتفاعلية؛ هذا ما أكدّه محمد إقبال في تصور محوري له في سياق استقصائه لمسألة تحديد التفكير الديني في الإسلام؛ حيث أكد أن وجود الإنسان وتقدمه الروحي في سيمته الدينية والشاعرية في إطار تتمين العمل المفضي للتطور الحضاري؛ رهين بإحكام العلاقة التي تُنشئها المعرفة؛ والمتعلقة بالإدراك الحسي بما في ذلك الإدراك القلبي؛ الذي يُكمله الإدراك العقلي.

لقد كان التصور السابق إجابة عن الإشكالية المركزية؛ وذلك من خلال الإقرار بالإسهام الواضح لتكامل المعارف أو العلوم في إطار ما يُعرف بالمقاربة البيّنة في تحقيق الفاعلية الثقافية المفضية إلى توفير الشُّروط المناسبة للتجديد الحضاري في صيغته الإحيائية والتطويرية، وذلك من خلال شرطين رئيسيين تتجلبان حضوراً واستنتاجاً في فكر محمد إقبال: تتعلق الأولى بشرطية المعرفة العلمية في تعددها وتساندها وكذا في مقصديتها في تيسير الحياة الإنسانية، ومن ثمة توفير الأسانيد الملائمة الفكرية والمنهجية لقيام الحضارة وتحديد أسانيدها وأنفاسها. في حين ترتبط الشرطية الثانية، (التي تُعتبر سبباً ونتيجة) بمفصلية الإنسان وبالأهمية البالغة لدوره المحقق لمبدأ الاستخلاف في الأرض، وسيكون للوعي والبناء الحضاري حضوره في إطار تلازمه حضوراً وغياباً بنوعيه الإنسان الحضاري المبدع والمحقق للحضارة، المحافظ على قيمها، والمجدد لمصالحها وفواعلها.

5. المصادر والمراجع:

- 1/ ابن حزم، الأندلسي. (1964) رسائل ابن حزم الأندلسي: رسالة مراتب العلوم، تحقيق: إحسان عباس، ط1، القاهرة - مصر: منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- Ibn Ḥazm, al-Andalusī. (1964) Rasā'il Ibn Ḥazm al-Andalusī : Risālat Marātib al-'Ulūm, taḥqīq : Iḥsān 'Abbās, Ṭ1, al-Qāhirah – Miṣr : Manshūrāt al-Mu'assasah al-'Arabīyah lil-Dirāsāt wa-al-Nashr
- 2/ إقبال، محمد. (2000)، تجديد الفكر الديني في الإسلام، تر: عباس محمود، ط2، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع.
- Iqbāl, Muḥammad. (2000), Tajdīd al-Fikr al-dīnī fī al-Islām, tara : 'Abbās Maḥmūd, ṭ2, Dār al-Hidāyah lil-Ṭibā'ah wa-al-Nashr .wa-al-Tawzī'
- 3/ إقبال، محمد. (2011)، تجديد الفكر الديني في الإسلام، تر: محمد يوسف عدس، ط1، القاهرة وبيروت: دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني.
- Iqbāl, Muḥammad. (2011), Tajdīd al-Fikr al-dīnī fī al-Islām, tara : Muḥammad Yūsuf 'Adas, Ṭ1, al-Qāhirah wa-Bayrūt : Dār al-Kitāb al-Miṣrī, Dār al-Kitāb al-Lubnānī
- 4/ حنفي، حسن. (2009)، محمد إقبال فيلسوف الذاتية، ط1، بيروت - لبنان: دار المدار الإسلامي.
- Ḥanafī, Ḥasan. (2009), Muḥammad Iqbāl faylasūf al-dhātīyah, Ṭ1, byrwt-Lubnān : Dār al-Madār al-Islāmī
- 5/ شهيد، الحسان. (2013)، التكامل المعرفي بين العلوم، ط1، قطاع الشؤون الثقافية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت: منشورات روافد.
- Shahīd, al-ḥisān. (2013), al-Takāmul al-ma'rīfī bayna al-'Ulūm, Ṭ1, Qiṭā' al-Shu'ūn al-Thaqāfiyah, Wizārat al-Awqāf wa-al-Shu'ūn al-Islāmīyah, al-Kuwayt : Manshūrāt Rawāfid
- 6/ الغزالي، أبو حامد. (1964)، ميزان العمل، تحقيق: دنيا سليمان، ط1، القاهرة - مصر: منشورات دار المعارف.
- al-Ghazālī, Abū Ḥāmid. (1964), mīzān al-'amal, taḥqīq : Dunyā Sulaymān, Ṭ1, al-Qāhirah – Miṣr : Manshūrāt Dār al-Ma'ārif
- 7/ مؤنس، حسين. (1978)، الحضارة، ط1، الكويت: منشورات عالم المعرفة؛ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- Mu'nis, Ḥusayn. (1978), al-Ḥaḍārah, Ṭ1, al-Kuwayt : Manshūrāt 'Ālam al-Ma'rīfah ; al-Majlis al-Waṭanī lil-Thaqāfah wa-al-Funūn wa-al-Ādāb
- 8/ Al Attass, Syed Mohamed Naquib. (1993) **Islam and Secularism**, 2nd Edition, : Kuala Lumpur- Malaysia: International Institute of Islamic Thought and Civilization (ISTAC).
- 9/ Iqbal, Muhammad. (1993) **The Reconstruction of Religious Thought in Islam**, 2nd Edition, California, USA & Lahore Pakistan: Stanford University Press In collaboration with Iqbal Academy.